الضرورة الشعرية

دراسة أسلوبية

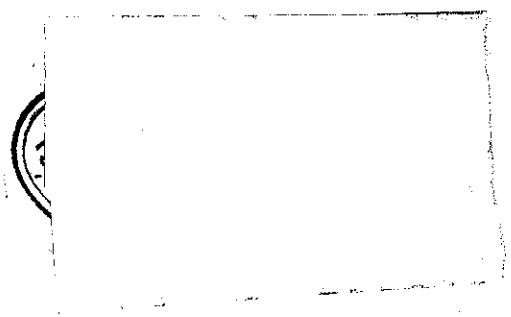

السيد إبراهيم محمد

الضرورة الشعرية

دراسة أسلوبية

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi

Demirbaş No: 21647

Tasnif No: 832.7 MUH.Z

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٩٨٣

جميع الحقوق محفوظة

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

الإهـــداء

إلى الذين يتصل بهم تاريخ النضال .

المؤلف

شكر وتقدير

عليَّ من الحقوق لأستاذي الدكتور عبد المنعم اسماعيل ما يعجز عن الوفاء به كل تعبير .

وبعد ، فهذا موضع عرفان وامتنان .

مقدمة البحث

حاولت في هذه الدراسة أن أعالج قضية الضرورة الشعرية باعتبارها أثراً للعلاقة بين الشاعر واللغة ، وأن أتناول من جهة أخرى تاريخ العلاقة بينها وبين الفكر النحوي . فللقضية وجهان أحدهما يتمثل في الظاهرة اللغوية باعتبارها نشاطاً إبداعياً ، والآخر يتعلق بموقف البحث النحوي منها باعتباره موقفاً نقدياً تحليلياً . وهذان هما موضوع البحث في هذه الدراسة .

أما الفكر النحوي فقد تعقبته بحثاً عن أصوله التي أملت اتجاهات الرأي فيه . وقد كان ذلك ضرورياً في بحث أريد له أن يكون متصل النسب بتاريخ البحث في موضوعه . ثم إني حاولت أن أستخلص من الفكر النحوي ما يمكن أن يمد البحث ويتقدم به . وقد تهيأ ذلك لي عن طريق بحث الأفكار التي بنى عليها سيبويه بحثه في قضية الضرورة الشعرية . واعتمدت في ذلك على ربط أفكار هذا العالم النحوي بعضها ببعض للوصول الى الأصول الفكرية التي عول عليها في البحث، فتتبعت كلامه ، وأمسكت بعضه ببعض على قدر ما أتاح لي الاجتهاد والاعتداد بالنظرة الكلية في البحث عن أصول المسائل .

وقد تبين لي أن لسيبويه فكراً متصلاً يدل بعضه على بعض لتشابه أنحائه واتساق الرأي فيه . فهو يقوم على أصول لا تكاد تختلف ، توجه عنها بحثه في الضرورة الشعرية كما توجه عنها بحثه للمشكلات النحوية الأخرى . والفكرة الأساسية التي ألح عليها

سيبويه هي فكرة التشبيه أو الحمل التي كان لها أثر ظاهر في علاجه للمشكلات النحوية التي يظهر فيها الخروج على الأصول النحوية المقررة في الشعر أو في الكلام .

ولكن الفكر النحوي انحرف عن الاتجاه الذي كان يمكن أن يفضي إليه فكر سيبويه من الأعتداد بالعلاقة بين مستويين من مستويات التعبير ، ومضى في مقولة فكرية مختلفة أساسها فكرة الأصول التي يرجع إليها الشاعر عند الضرورة ، وانبنت على هذه الفكرة فلسفة البحث في الضرورة الشعرية عند النحويين . وفي هذا المناخ الفكري المختلف استقبل البحث النحوي آراء سيبويه في الضرورة الشعرية ، فاختلف فهم النحويين لسيبويه ، وطوعت أفكاره للمناخ الفكري الجديد الذي مضى على أيدي النحويين في موجات متدافعة بلغت قمتها في القرن الرابع الهجري .

وقد انتهى القول في الضرورة الشعرية في الدراسات العربية ، وهي مظهر من مظاهر الخروج على النحو، إلى أنها أثر من آثار عجز الشاعر وقصور لغته وافتقاره إلى القدرة على الأخذ بناصية اللغة . وقد جاء هذا المعنى من الربط بين الضرورة الشعرية والميزان الشعري . وسبب ذلك أمران : أحدهما يتعلق بباب الجدل في ماهية الشعر ، والثاني نهض مع اطلاق مصطلح الضرورة نفسه على ظاهرة الخروج في الشعر عما هو مألوف في الاستعمال . فقد تحددت ماهية الشعر في الدراسات العربية بالوزن والقافية . ولما كانت الضرورة تتعلق بالتركيبات اللغوية التي تقع في الشعر ولا تقع في النثر ، فان هذا قد أدى إلى وقوع هذه الدراسات في الربط بين الوزن والضرورة . وأفضى ذلك إلى جعل العلاقة بينهما علاقة علية ، كالعلاقة بين السبب والنتيجة .

كما أدى إطلاق مصطلح الضرورة على ظاهرة الخروج عما هو مطرد من الاستعمال اللغوي في الشعر ، إلى الربط بينها وبين الضرورة الشرعية . وقد أدى ذلك إلى خضوع مسألة الضرورة لفكرة الوزن خضوعاً كاملاً ، فقام الوزن الشعري عن كل شيء في تفسير الضرورة الشعرية ، فتوجهت جهود النحويين إلى حصر الضرورات في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير وما إلى ذلك .

وقد أفضى تفسير الضرورة بالوزن الشعري إلى ترتيبات بعيدة الأثر ، أخطرها رفض الاعتداد **بالظاهرة**، لارتباطها بقصور التعبير ، كما نأى بالدراسات العربية عن أن تتهيأ لبحث الخروج عن مستويات الاستعمال المطردة في القرآن الكريم .

ولكن الضرورة الشعرية ، على ما انتهى إليه البحث في هذه الدراسة ، مظهر من مظاهر الارادة الشعرية ، يتجلى فيها روح الأديب وفرديته ، بل هي سبيل إلى فهم العمل الأدبي بأسره باعتباره كلاً متكاملا . وهذا المعنى يأتي من الدراسة الأسلوبية للظاهرة اللغوية حيث تنطلق الدراسة من المعالم اللغوية الأساسية في بحث العمل الأدبي ومن بينها ما يظهر في العمل الأدبي من مواطن الخروج على المستوى العام الذي عليه الاستعمال العادي للغة ، ومن هذه الجهة يأتي بحث الخصائص الأسلوبية التي بها يتفرد العمل الأدبي .

على أن الظواهر اللغوية ومن بينها الضرورة الشعرية ليست مقطوعة الصلة عن التراث وهو البيئة الطبيعية التي تنهض فيها الظاهرة ، وإنما هي استيعاب له واستبطان لأسرار العلاقات الكامنة فيه . ومن هذا المعنى انطلقت في بحث الضرورة الشعرية على أنها أثر إيجابي للعلاقة الحية بين العمل الأدبي والتراث وفيها يظهر التعامل الذكي والتناول الخلاق لمكنونات التراث الباطنة .